

خصائص العائلية السياسية فى الولايات المتحدة

د. مازن النجار

المدير السابق لمركز دراسات الإسلام والعالم بأمريكا

مع انحسار المد الاستعماري الأوروبي في العقود الأخيرة من القرن العشرين، أخذ نطاق كبير من العلوم والدراسات الاجتماعية والإنسانية في الأوساط الأكاديمية الغربية في التحرر من تحيزاتها التقليدية القديمة إزاء العالم غير الأوروبي، سواء تلك التحيزات التي تعود إلى التمرکز حول الذات الأوروبية، أو تلك التي لا ترى تاريخ العالم وحضاراته إلا في سياق الحضارة الأوروبية والتاريخ الأوروبي. فلا يمكن فصل السياق التاريخي للدراسات الاجتماعية في الغرب بأي حال عن حركة "الكشف" الجغرافي الأوروبي للعالم، وتجربة التوسع الامبريالي الأوروبي. ولا يخفى على ذي بصيرة دور تلك الدراسات في خدمة واستدامة المشروع الامبريالي ذاته. ولعل مجال الأنثروبولوجية هو النموذج الأوضح على دور تلك الدراسات في خدمة المشروعات والإدارات والممارسات الأوروبية، في مختلف مناطق التوسع والمستعمرات، خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين.

كذلك، كانت الجمعيات الجغرافية والتاريخية والعلمية الأوروبية، في أمستردام ولندن وباريس وبرلين وفيينا، على سبيل المثال، تؤدي دوراً مشهوداً (بجانب دور القناصل وممثلي الشركات التجارية الأوروبية) في عمليات الرصد والاستطلاع والاستكشاف، التي تسبق وتمهّد لوصول جيوش وأساطيل الاستعمار والاستيطان التي أرسلتها بعض هذه البلاد على الأقل. وكان يتمّ ذلك تحت مسميات الاكتشاف الجغرافي والعلمي والدراسات الاستشرافية وأدب الرحلات. شكلت أدبيات وإنشاء الرحالة والقناصل الأوروبيين بواكير المصادر الأوروبية عن الشرق وسحره وثرواته وحريمه، وسائر عناصر الصورة العجائبية للشرق.

أدى تحرر الأوساط والدراسات الاجتماعية الغربية، ولو جزئياً، من الإنتاج الأكاديمي الزائف أو (spurious scholarship) بتعبير الراحل إدوارد سعيد، إلى بروز أصوات وأفكار وتواريخ من خارج النسق أو فضاء التداول الأوروبي، وتغير لافت في مناهج ومقاربات البحث والتشخيص، وتطور كبير في قدرة دراسات العلوم الاجتماعية على تناول مختلف قضايا الإنسان والاجتماع الإنساني الكبرى، بحيث برعت في معالجتها في العقود الأخيرة بأساليب ومناهج أكثر ابتكاراً وتركيباً، خاصة لدى التعاطي مع ظواهر غير أوروبية، ذات خصوصيات ثقافية ودينية وحضارية، على وجه الإجمال.

وبصرف النظر عن مدى الصلة المباشرة أو التأثير العضوي لتلك التغيرات أو التطورات المنهجية في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية بموضوع هذه المساهمة، حول نشأة السلالات والأيدولوجيات السياسية بالولايات المتحدة الأميركية، إلا أن دراسات علماء الاجتماع والأنثروبولوجية للسلالات الإثنية والدينية والسياسية والثقافية قد مضت شوطاً بعيداً في فهم وتحليل هذه الظواهر ودورها في تفسير الظاهرة الإنسانية الاجتماعية إجمالاً وحركاتها ومآلاتها وصيرورتها، وما يترتب على وجودها من مستجدات وأوضاع وتطورات. وأهم ما تؤدي إليه محصلة هذه الدراسات هي الاستحالة التامة لنشوء أي ظواهر مستجدة أو مستحدثة من فراغ إنساني أو اجتماعي أو سياسي أو ثقافي. ولا مناص إذاً من تتبع العلاقة الجدلية (التفاعلية) بين الظاهرة الاجتماعية لتجربة من تجارب الجماعات البشرية، وبين تاريخ هذه التجربة، ومختلف السياقات التاريخية والثقافية والبيئية والاقتصادية والدينية التي تنشأ وتنمو وتتطور من خلالها تلك الجماعات.

بناء على ذلك، لا بد للباحث في هذه المجالات الدراسية من رصد مختلف التفاعلات الكلية بين مكونات وظروف وسياقات الظاهرة الاجتماعية، وصولاً إلى التقاط مناحيها ومساراتها وإدراك خصائصها وتكوين منحنيات. ولأنه ليس هناك ظاهرة اجتماعية في الفراغ، ولأن التاريخ هو مسرح الفعل الاجتماعي البشري والاستجابات الاجتماعية لتحدياته وابتلاءاته ونوازل، ولأن لا تأريخ بدون نظرية تحله وتفسره كما رأى بحق أحد المؤرخين الأوروبيين، فليس هناك ظاهرة اجتماعية بدون جذورها التاريخية وبدون نظرية تفسرها وتربطها بالسياق العام للتجربة الاجتماعية البشرية.

في البدء كان الاستيطان

بدأ تاريخ الولايات المتحدة الأميركية في قارة أوروبا قبل أن تُعرف أميركا، وفي القارة الأميركية قبل وصول المستوطنين الأوروبيين. فقد دخلت أوروبا في زمان كريستوفر كولومبس عهداً جديداً من التمدد واستكشاف العالم مجدداً، ولكن بطريقة أوروبية خالصة، وصولاً إلى أفاق بعيدة لم يرتادوها من قبل، يلخصها تعبير "بعيداً ونائياً" أو far and away وهو عنوان أحد الأفلام الأميركية الذي يقص جانباً من تجارب المهاجرين الأوروبيين إلى العالم الجديد.

كانت الآمال التي جاءت بها جماعات المستوطنين الأوروبيين من "العالم القديم" إلى "العالم الجديد" مختلفة بقدر اختلاف أممها وشعوبها، وتراوحت بين الطمع في الذهب أو حب المغامرة، وحب العظمة أو شرف خدمة الحاكم، أو الهرب من ظلم وجور الحكام، أو البحث عن حرية الدين والعبادة، أو الإفلات من الفقر والمجاعات

والسجون، أو إقامة مزرعة الأحلام. وهناك البعض الذين جاءوا أو جيء بهم بدون أحلام أو آمال، واستخدموا اقنأناً في مزارع التبغ (التبناك) والقطن وقصب السكر أو عبيداً في المناجم والمطاحن ومشروعات مد السكك الحديدية من المحيط إلى المحيط. وعلى مدى مائتي عام تقريباً، صهرتهم الحياة في القارة الجديدة في بوتقة واحدة، لكي يتكوّن منهم الشعب الأميركي. لكن ما كان يعني بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين النجاح وتكوين امبراطوريات، كان يعني بالضرورة بالنسبة للأميركيين الأصليين (الهنود الحمر) صراعاً دمويّاً ممتداً وخاسراً من أجل البقاء والوجود والحفاظ على أرضهم وحياتهم وسبل عيشهم.

سيطر على المستعمرات في العالم الجديد نخب تعكس المصالح الاقتصادية والاهتمامات الدينية الكامنة وراء مشروعات الاستيطان. وتراوحت بين رجال دين بيوريتان (Puritans) وكبار الأثرياء وملوك الأراضي، وشركات الاستثمار والتجارة (من الطبقة الانكليزية الميركانتيلية)، وبعض المغامرين، وقليل من المثقفين الذين تلقوا تعليماً عالياً آنذاك.

خلافاً لرغبتهم الأصلية في الهجرة إلى مستعمرة جيمس تاون بمنطقة فرجينيا، وبسبب عواصف بحرية أدت لجنوح سفينتهم مايفلاور (Mayflower) اضطرت طائفة "الحجاج" Pilgrims الدينية الانكليزية المهاجرة للنزول إلى منطقة نيوانغلند بشمال شرق أميركا، وأسسوا مدينة بليموث وهي الآن بولاية ماستشوستس. وكانت جماعة بيوريتان لندن قد أنشأت مستعمرة نيوهيفن في كونتيكت، التي أمّها وسكنها في البداية البيوريتان فقط. وقد توطدت الأمور للبيوريتان على ساحل ماستشوستس بعد وفود جماعات كثيرة منهم، حيث كانوا يعترضون على الكنيسة البريطانية، لكن دون أن يفكروا في الانفصال عنها، بل كانوا يريدون تنقيتها، وقد لقي هؤلاء نجاحاً سريعاً بسبب تنظيمهم، مما جعلهم يزدادون بسرعة، خاصة بعد "الهجرة الكبرى" التي جاءت بحوالي ٢٥ ألفاً منهم إلى ماستشوستس هرباً من اضطهاد الكنيسة الأنغلكانية في عهد الملك شارل الأول. وعندما سيطر هؤلاء البيوريتان على حكم ماستشوستس، لم يقبلوا أي معارضة، واضطروا المعارضين إلى الخروج من بوسطن عدة مرات، ما أدى إلى إنشاء عدد من المستوطنات الجديدة، والولايات فيما بعد، بداية كمستعمرات ولاحقاً ولايات: رود آيلند، وفيرمونت، ومين.

التشكيل الاستيطاني اجتماعياً وثقافياً

كانت الكتلة السكانية الرئيسة للمهاجرين والمستوطنين يغلب عليها الطابع البروتستانتي الخالص. وحتى عندما سمح البريطانيون بهجرة غير البريطانيين إلى مستعمرات العالم الجديد، فقد اقتصر ذلك على ثلاث فئات هي: الألمان البلاتين (Palatine Germans) والاسكتلنديون والإيرلنديون (Scotch-Irish) والرقيق السود. وبدأت هجرة الألمان بعد عام ١٧١٠ عقب صدور موافقة البرلمان البريطاني على منح الجنسية لكل بروتستانتي يهاجر إلى أميركا. كان المهاجرون الألمان يغادرون بلادهم هرباً من الفاقة والصراعات والاضطهاد الديني؛ واستقروا في داخل اليابسة بعيداً عن السواحل، خاصة في بنسلفانيا ذات الأرض الواسعة، وأصبحوا يعرفون بهولندي بنسلفانية (Penn-Dutch) ثم لاحق بالألمان مهاجرون بريسبتاريون (Presbyterian بروتستانت) من شمال اسكتلندة وإيرلندة هرباً من اضطهاد الكنيسة الأنغلكانية في اسكتلندة والكنيسة الكاثوليكية في إيرلندة،

وزيادة الفائض السكاني مقابل محدودية الموارد الاقتصادية التي كانت تتسبب بمجاعات أحياناً. كذلك، هاجرت جماعات من الفرنسيين "الهوغونوت" (Huguenots البروتستانت)، وكان هؤلاء قد تعرضوا لاضطهاد وصل حد المذابح أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين. ويقال أن عدد ضحايا هذه المذابح قارب المليون قتيلاً، وكانت خسارة بشرية وأخلاقية هائلة لفرنسا، نظراً لما كان يمثل هؤلاء الهوغونوت من تميز ثقافي وتعليمي وفكري. كذلك، ضمت الهجرات جماعات سويسرية وسويدية استوطنت في البداية وادي (ولاية) ديلاوير، ومثلوا إضافة ولو صغيرة للتشكيل الاستيطاني.

سبق المهاجرون الألمان غيرهم إلى الاستيطان في المناطق الجبلية بفرجينيا وكارولينا إضافة إلى بنسلفانيا. ثم جاء الإيرلنديون ليستوطنوا إلى الغرب والجنوب الغربي، كما استقر الهوغونوت في الكارولينا أيضاً، واستوطن الاسكتلنديون في الكارولينا وجورجية، بينما استوطن الهولنديون في نيويورك. والحقيقة أن معظم هذه الجماعات من المهاجرين على اختلاف أرومتهم قد فقدت قدراً كبيراً من سماتها وتقاليدها وشخصيتها الأصلية، لدى انخراطها في المجتمع الاستيطاني الجديد مع بعض الاستثناء. وربما كانت طائفة الأميش Amish البروتستانتية التقليدية ذات الأصول الألمانية/الهولندية أبرز تلك الاستثناءات؛ حيث لا زالت تحافظ على الكثير من أخلاقياتها وتقاليدها وأنماط معيشتها الأصلية كما جاءت بها من أوروبا في القرن الثامن عشر، ولا تزال تعيش أغليبتها في ولاية بنسلفانيا، وكذلك يعيش بعضها بولاية إنديانا.

رغم أن المهاجرين الأوروبيين قد جاؤوا محمّلين بميراثهم الاجتماعي وأعبائهم الطبقية والفروق القائمة بينهم في الثروة والسلطة، إلا أن هذه التفاوتات الطبقية والاجتماعية بينهم قد تقلصت بشكل ملحوظ، وعلى نحو أقل اتساعاً وحِدّة عما كان عليه الأمر في مواطنهم الأوروبية الأصلية. فقد كانت الأرستقراطية الجديدة في أميركا مكونة من كبار الموظفين ورجال الدين والحرفيين وكبار أصحاب السفن والتجار وكبار الإقطاعيين بريطانيي الأرومة. وأدت وفرة الموارد الاقتصادية الطبيعية إلى تحسن الأوضاع الاجتماعية وظروف المعيشة في المجتمع الأمريكي. لكن كان هناك تمايز بين أرستقراطية كبار موظفي المستعمرات المنحدرين من أصل بريطاني وبين أعضاء الشرائح الصاعدة الجديدة التي تحسنت أوضاعها الاجتماعية الاقتصادية نظراً للفرص المتاحة وتوفر الموارد.

من ناحية أخرى، كانت الطبقة الوسطى تتكون من المزارعين والتجار والفنيين، وهي الطبقة التي تمثل الغالبية الكبرى بين سكان المستعمرات. أما الطبقة الثالثة فكانت مكوّنة من العمال الأحرار غير الحرفيين. ووصف العمال الأحرار هنا لازم لتمييزهم عن الطبقة الرابعة المكونة أساساً من عمال الخدمة المتعاقدين In-dentured Servants)الذين التزموا بالعمل لعدد من السنوات، يتراوح بين ٣ و ٧ سنوات، مقابل إحضارهم من أوروبا إلى أميركا، ويضاف إليهم في الطبقة الرابعة الأرقاء الأفارقة.

الحياة الدينية في المستعمرات

احتل الدين مكانة بالغة الأهمية في حياة وفكر ورؤية سكان المستعمرات لأنفسهم وللعالم في تلك الفترة من التاريخ. فقد شمل التشكيل السكاني الاستيطاني آنذاك جماعات عديدة من بروتستانت الأطراف أو الهوامش،

أي الذين لم يكونوا تابعين للكنائس البروتستانتية الرئيسية الكبرى كالأنغلكانية ولم يتخذوها مرجعية لهم؛ لكنهم عوضاً عن ذلك، فضلوا تكوين تجمعاتهم الدينية (المستقلة) Congregations الخاصة بهم، إضافة إلى طقوسهم وعباداتهم التي اختاروا الالتزام بها. وكان هؤلاء قد تعرضوا لاضطهاد وعسف الكنائس الرسمية في أوروبا؛ مما حدا بهم للهجرة إلى أميركا، وهناك وجدوا ملاذاً آمناً، وازدهرت تلك الجماعات البروتستانتية وانتشرت كنائسها، وأصبحت علماً على نمط الحياة والاجتماع والتفكير في العالم الجديد. ورغم صحة مقولة أن تعدد وتنوع الخلفيات الدينية لجماعات الهجرة والاستيطان الوافدة إلى أميركا قد أدّى بدوره إلى إيجاد مناخ من التسامح الديني في العالم الجديد بأكثر مما هو الحال في أي مكان آخر بالغرب، إلا أنه من الصحيح أيضاً أن هذه التجربة هناك قد شهدت مبكراً اضطهاداً من بعض الكنائس والجماعات الدينية بحق كنائس وجماعات مسيحية أخرى. ففي غضون القرن السابع عشر، كان يحكم بالإعدام على الفرد في بنسلفانيا لمجرد انتمائه إلى طائفة الكويكرز المسيحية، ومر زمن طويل قبل إبطال هذه الأحكام والقوانين الجائرة.

كان لمعتقدات وممارسات طائفة البيوريتان في نيوانغلند أثر كبير على الحياة في المجتمع الاستيطاني الجديد أكثر من أي طائفة دينية أخرى؛ فقد كان البيوريتان من أتباع الإصلاح البروتستانتي الكبير جون كالفن الذين يؤمنون بأن الإنسان مسيرٌ وليس مخيرٌ؛ وأن الرب هو الذي قرّر بالفعل أولئك الذين سينقذهم في الحياة الأخروية مما دفع كثيراً من البيوريتان نحو "تصوّف" سعيّاً لمعرفة ما إذا كانوا من الذين اختارهم الرب، ونحو الاهتمام بتحسين أحوالهم وأحوال الآخرين. وكان البيوريتان يعتقدون قانوناً أخلاقياً صارماً؛ فأصدروا قوانين تحظر العمل يوم الأحد، وتعلي على أفراد المجتمع الذهاب إلى الكنيسة. ورغم الحرية الدينية التي سعت إليها هذه الطائفة في العالم الجديد إفلتت من الاضطهاد الديني بأوروبا، وتمتعت بها بالفعل؛ إلا أنها قد مارست الاضطهاد بحق طوائف دينية أخرى في العالم الجديد، مثل المعمدانين (Baptists) والكويكرز (Quakers) واليهود والكاثوليك، وآخرين. ومع شيوع ظاهرة الاعتقاد بالسحر الديني ولعنة السحرة أوروبياً وأميركياً في القرن السابع عشر، تورط البيوريتان في ١٦٩٢ في مطاردة ومحاكمة السحرة Witch Hunt وأعدم نتيجة لذلك 19 شخصاً قبل أن يتم وقف مسلسل المطاردات، الذي عرّض شخصيات مرموقة للمحاكمة، مما أدى لفقدان الثقة في بعض قادة البيوريتان.

كان التنظيم الكنسي لطائفة البيوريتان يعتبر مستقلاً أو "كونغريغيشنال" Congregational أي أنهم يؤمنون بحرية كل كنيسة من أي سيطرة أو هيمنة عليا من خارجها، وهذا المبدأ ينسحب على معظم الكنائس البروتستانتية التي نشأت وانتشرت في العالم الجديد؛ وهو تقليد بروتستانتي أصيل وتاريخي بدأ برفض سيطرة الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها الكنيسة "العالمية" أو كنيسة الرب الواحدة ومستودع الأسرار المقدسة. وتدرج تطبيق هذا المبدأ بحيث أصبح يعني أيضاً رفض هيمنة الكنيسة الأنغلكانية بدورها على الطوائف البروتستانتية.

في رودأيلند، كانت الطائفة الدينية الأبرز هي المعمدانية، وقد بدأت سيرتها هناك تحت قيادة القسيس المثقف خريج جامعة كامبردج، روجر وليامز، الذي سبق له الدعوة إلى شراء الأرض من القبائل الهندية بدلاً من الاستيلاء عليها، واعترض على ممارسات البيوريتان في بوسطن، وتم إخراجها وأتباعها منها بسبب ذلك. كانت لطائفة الكويكرز حضور ظاهر في بنسلفانيا ونيوجرسي، وجلب المهاجرون الاسكتلنديون والإيرلنديون معهم جماعات

من اللوثرين (Lutherans) والمخونيات (Mennonites) والمورافيين (Moravians) واستوطن كثير من البيوريتان في نيوجرسي. واستوطن في نيويورك جماعات من الإصلاحيين الهولنديين والألمان، ولم تغلب على نيويورك سمة دينية ظاهرة.

في مستعمرات الجنوب، كان لجماعات الكنيسة الأنغليكانية حضور ظاهر؛ بينما كان الكاثوليك الجماعة الأبرز في ميريلاوند، ولا يزال ذلك قائماً خاصة في مدينة بلتيمور التي لها أسقف كاثوليكي، وسيطر الكاثوليك على مؤسساتها السياسية لعقود طويلة. وأدى وجود الجماعات الأنغليكانية بانفتاحها على الحياة وطلاقها الاجتماعية في الجنوب إلى تميزه عن الشمال الذي صبغه البيوريتان بصبغة قاتمة، وعرف التطرف الديني. واستوطن البريسبتريريون والمعدانيون والكويكرز في مناطق الجنوب الداخلية.

المسائل الكبرى

في ضوء هذه الصورة المختصرة أعلاه لعناصر وسمات التشكيل الاستيطاني الأميركي المبكر، يمكن تشخيص مجموعة القضايا الأساسية والاهتمامات الرئيسة أو المسائل الكبرى التي تمثل جوهر هذه التجربة التاريخية الممتدة، والتي حددت ولا تزال تحدد الخطوط العامة المشتركة بين الأفكار والتوجهات والسلالات السياسية والأيدولوجية التي مرت عبر التاريخ الأميركي، وكذلك مفاصل الاختلافات والتغيرات فيما بينها. كما تلقي هذه الجوانب مجتمعة الضوء على المسارات التي تشكلت بها الولايات المتحدة والنحو الذي آلت ولا تزال تؤول إليه. يمكن إجمال هذه الاهتمامات المحددة في عدد من المسائل.

أولاً: الخروج من الفقر والبطالة والجماعات التي عانتها المجتمعات الأوروبية الطاردة للمهاجرين، والوصول إلى أرض الميعاد الجديدة وبلاد اللبن والعسل، كما كانوا يستلهمون أو يتمثلون بنصوص العهد القديم، حيث الأرض ممتدة بغير نهاية من المحيط إلى المحيط، وموارد طبيعية لا حدود لها، والثروة والوفرة الهائلة، وحرية تجارية، واقتصاد رأسمالي، وتقدم وازدهار بلا نهاية.

ثانياً: التحرر من عسف واستبداد الملوك والحكام في أوروبا والذين كانوا يمارسون الحكم بطريقة أوتوقراطية مطلقة، وتطلع الجماعات إلى قدر كبير من الاستقلال الذاتي، والتمثيل الشعبي، وإدارة شؤونهم بأنفسهم.

ثالثاً: الحرية الدينية والإفلات من اضطهاد وهيمنة الكنائس (الرسمية) الكبرى، وتكوين جماعات دينية مستقلة، بقناعاتها وتقاليدها وطقوسها ورؤيتها الكونية.

رابعاً: تطلع النخب إلى تحقيق المجد والقوة والشهرة في فضاء العالم الجديد، وبناء مشروعاتها الإمبراطورية الجديدة المتحررة من سيطرة الممالك والإمبراطوريات الأوروبية التقليدية، وقطع يدها عن التدخل في شؤون العالم الجديد. والتمدد الإمبريالي والتوسع على حساب المشروعات الإمبريالية الأسبق، الأسبانية والبريطانية والفرنسية.

خامساً: الاعتقاد بفراة التجربة الأميركية، وخصوصية الثورة الأميركية في الحضارة والتاريخ الإنساني والديني، وتميز الجمهورية الأميركية في التنظيم السياسي والحقوق والاقتصادي عن سائر العالم القديم، وريادتها في فضاء التقدم الإنساني. فهو إذن شعور بالاستثناء والتفوق وأن أميركا أمة ذات رسالة خاصة: أي

أن أميركا شعب "مختار" إذ يختلط الدين في اللغة والأدبيات الأميركية بالمشاعر القومية، واستقرت هذه اللغة فيما يسمى في الولايات المتحدة بـ "الدين المدني". فهي لغة لا تكتفي بالاستعارة من العهد الجديد، بل تستعير صور العهد القديم. فالهاجرون الأوائل الذين رحلوا عن أوروبا يُشبهونها بمصر العبودية (التوراتية) كما في العهد القديم، ويشبهون الولايات المتحدة بـ "أرض الميعاد". يؤدي هذا التمثيل لحالة الاستثناء والفرادة -بناءً على الديني والمقدس- إلى مشروعات وممارسات سياسية ذات تضمينات دينية "إلهية" تقوم بها أميركا.

سادساً: كرسّت حروب الثورة الأميركية ضد البريطانيين حق الشعب في التسلح، وتكوين الميليشيات المسلحة، والتمسك بصيانة الأمن الذاتي، كما كرسّت سيادة الفرد داخل أراضيه أو ممتلكاته.

كانت هذه الخطوط ولم تزل هي المحددات العامة التي تشكل التفكير السياسي الأميركي لدى النخب والجماهير الأميركية، وبناءً على المواقف المتخذة منها تكونت الايديولوجيات والسلالات السياسية بالولايات المتحدة.

سلالات التفكير الدستوري والسياسي

بعد نجاح الثورة الأميركية، تمت مصادقة الولايات على الدستور الكونفدرالي في ١٧٨١، وبناءً عليه أقيمت حكومة مركزية للولايات الأميركية لتخلف الكونغرس القاري الذي غطت مهامه مرحلة من ١٧٧٥ إلى ١٧٨١ تعلمت الولايات الأميركية من تجربتها مع الحكم الاستعماري البريطاني أن تشكل دائماً في سلطات الحكومة المركزية. لذلك كانت الولايات تتجه نحو تكوين حكومة مركزية ضعيفة، لا تنافس أو تتجاوز سلطات حكومات الولايات المستقرة؛ مما أدى إلى إضعاف سلطات الحكومة المركزية المنصوص عليها في الدستور الكونفدرالي. وقد أعطيت لحكومات الولايات سلطات واسعة ومستقلة عن الحكومة المركزية. بيد أنه عندما ثبت أن ضعف هذه الصيغة من الحكم الكونفدرالي وعدم مناسبتها للمصالح المتطورة للبلاد، أفلحت الجهود في إلغاء الدستور الكونفدرالي ووضع دستور جديد، يتكون بمقتضاه اتحاد فدرالي يمكن بواسطته التخلص من نقاط الضعف التي وجدت في نظام الحكم الفيدرالي السابق.

في ١٧٨٧ تم عقد المؤتمر الدستوري لصياغة دستور فدرالي (اتحادي) بهدف إقامة حكومة مركزية فاعلة تختلف عن الحكومة المركزية في الدستور الكونفدرالي السابق. كان أبرز الداعين لحكومة مركزية قوية في المؤتمر ألكسندر هاميلتون، وقاد جيمس ماديسون الملقب بـ "أبو الدستور" مناقشات المؤتمر وسجل محاضر لكل اجتماعاته، وطرح مبادرة الولايات الكبرى "سكانياً" بإقامة مجلس كونجرس واحد يعكس تمثيل الأوزان السكانية للولايات. ولُقِّب بنجامين فرانكلين بـ "حكيم المؤتمر"، إذ كان يساهم في تهدئة الحاضرين لدى احتدام النقاش أحياناً. وبسبب تخوفه من صياغة حكومة مركزية قوية، لم يحضر باتريك هنري المؤتمر، بينما كان توماس جفرسون - وهو من أنصار حقوق الولايات - غائباً أيضاً عن المؤتمر حيث كان وزيراً مفوضاً للحكومة الكونفدرالية في فرنسا.

كانت غالبية الممثلين الذين حضروا المؤتمر من المثقفين صغار السن، لكنهم كانوا أيضاً من كبار الملاك والمحامين المشهورين المحافظين في التفكير ومن دعاة الفدرالية، ويمثلون طبقة كبار الملاك ذات المصلحة العليا في

إيجاد حكومة مركزية قوية. وهكذا تمكن المؤتمر من معالجة أوجه القصور في الدستور الكونفدرالي، بما يؤدي لإقامة دولة مركزية فعالة ووحدة قوية، وبدت الصيغة الجديدة حكومة عملية ذات فعالية. وأسفر المؤتمر عن تسوية وسط للجمع بين نظامي التمثيل السكاني النيابي المفضل للولايات الكبرى: مجلس النواب، ومجلس شيوخ لتمثيل الولايات على قدم المساواة بصرف النظر عن أوزانها السكانية، وهذا ما أطلق عليه "التسوية الكبرى".

رغم التصديق على الدستور في سبتمبر/أيلول ١٧٨٧ أسفرت الساحة السياسية عن نختين متميزتين. إحداهما هي الفدراليون (Federalist) المؤيدون للدولة المركزية القوية وأبرزهم جون آدمز الرئيس الثاني للولايات المتحدة، ووزير المالية ألكسندر هاملتن، وعبرت عن توجهها بحزب سياسي أسسه الأخير وحمل نفس الاسم، ودام في الفترة (١٧٩٢-١٨١٦) والنخبة الأخرى المعارضة (Anti-Federalist) وعبرت عن توجهها نحو ترجيح سلطات الولايات بحزب آخر أسسه الرئيس الثالث توماس جفرسن والرئيس الرابع جيمس ماديسن في ١٧٩٣ أيضاً وسمي الحزب الجمهوري الديمقراطي (Democratic-Republican Party) وسيطر الحزب على مقاليد الأمور بين ١٨٠٠ و١٨٢٤ حتى انقسم إلى مجموعات متنافسة، إحداهما عرفت بالحزب الديمقراطي (المبكر)، وهو السلف الذي تمخض عنه الحزب الديمقراطي الراهن، والذي يعتبر جفرسن الأب الروحي المؤسس له. حافظ الرئيس الأول جورج واشنطن على استقلاله طيلة سنوات رئاسته، رغم كونه أقرب إلى الفدراليين.

رغم انفراط عقد الحزب الفدرالي عقب الحرب الأميركية البريطانية في ١٨١٢ وخسارة الفدراليين لصديقيهم الوطنية، لكونهم محسوبين تقليدياً على النفوذ البريطاني، لم تتوار الفكرة الفدرالية في الحياة الدستورية والسياسية؛ بل استمرت سيرتها وتأثيراتها الفاعلة على يد القاضي جون مارشال الذي كان فدرالي القناعات والانتماء، وقد عينه الرئيس الفدرالي الوحيد في التاريخ الأميركي، جون آدمز، رئيساً للمحكمة (الاتحادية) العليا في ١٨٠١ واستمر كذلك حتى ١٨٣٥ ومنذ بداية القرن التاسع عشر، أدت هذه المحكمة دوراً بارزاً في إيجاد الأسس القانونية التي ثبتت دعائم الحكم المركزي، وقام مارشال بدور هام في دعم نظريات الفدراليين. وأصدر أحكاماً في عدد كبير من القضايا ذات المسائل الدستورية، ولم يحد أبدأ في قراراته عن مبدأ "سيادة الحكومة الفدرالية"، بل كان يرى أن الدستور يعطي الحكومة سلطات أخرى ضمنية (implicit powers) بجانب السلطات الصريحة (explicit powers) وهكذا ترك مارشال أثراً بالغاً على دور وسيرة المحكمة العليا في سياق سعيه لجعل الحكومة الفدرالية ذات قوة وفعالية.

من ناحيته، انحاز الحزب الجمهوري الديمقراطي إلى الفلاحين ومنحهم الأولوية على المصالح المالية للصيارفة والصناعيين والتجار؛ بيد أنه شمل نطاقاً واسعاً من وجهات النظر حول قضايا التجارة والأشغال العامة وحركة التصنيع. وتمايز داخله جناحان على الأقل؛ وهما جناح الديمقراطيون الشمالي الذي تزعمه ماديسن، وكان أكثر انفتاحاً على هذه القضايا؛ مقارنة بجناح الجمهوريين الجنوبيين بزعماء جفرسن.

في عهد الرئيس الجمهوري الديمقراطي جيمس مونرو (١٨١٧-١٨٢٥) أيدت الولايات استقلال أقطار أميركا اللاتينية عن أسبانيا والبرتغال، ابتداء من ١٨٢٢ وأعلنت معرضتها التامة لأي تدخل أوروبي في شؤون الأمريكتين، وهو ما عرف لاحقاً بـ"مبدأ مونرو"، وكان هذا تجسيدا لأحد أهم التطلعات الأميركية نحو الانفراد بالقوة والنفوذ والتجارة في أميركا الوسطى والجنوبية، وإخراج الدول الأوروبية من النصف الشمالي للكرة

الأرضية. واستكملت إدارة مونرو مبدأها بمطاردة النفوذ الروسي في الشواطئ الغربية للقارة الأميركية؛ فقد تمكن الروس في ١٨١٢ من الوصول إلى مسافة أميال من شواطئ سان فرانسيسكو، وأعلن القيصر الروسي انفراد روسيا بالحقوق التجارية لساحل المحيط الهادي حتى خط عرض 51 كشمالاً، وأن المياه الإقليمية لروسيا تمتد ١٠٠ ميل في مياه الهادي. اتخذت الولايات المتحدة من مبدأ مونرو أساساً لمنع تدخل الدول الأوروبية في شؤون أميركا الجنوبية، وأحياناً لتبرير سياستها الانعزالية، بينما جعله الرئيس ثيودور روزفلت ذريعة للتدخل في شؤون أميركا الجنوبية في أوائل القرن العشرين، عندما شجع انفصال إقليم بنما عن كولومبيا، لكي تستفرد الولايات المتحدة بالسيطرة على مشروع قناة بنما، بعد إخفاق الفرنسي ديليسبس في إنجازها.

شهدت انتخابات ١٨٢٤ استقطاباً جهوياً حاداً بين مرشحي الحزب الجمهوري الديمقراطي، خاصة بين مرشح "الديمقراطية الجديدة" أندرو جاكسون ذي الأصول الجنوبية (الحدودية)، ومرشح الشمال الشرقي الصناعي جون كوينسي آدمز، المنتمي إلى الجناح الفدرالي في الحزب الجمهوري الديمقراطي، وابن الرئيس الثاني الفيدرالي المبدأ جون آدمز. جاء فوز الأخير بالرئاسة في جولة الإعادة رغم حصول جاكسون على أعلى الأصوات في الجولة الأولى، ليسبب مرارة لدى أتباع الأخير، وبدأ انقسام الحزب الجمهوري الديمقراطي رغم انفراده الكامل بالساحة لعقود واختفاء الحزب الفدرالي، وتحولت الخلافات السياسية إلى عداوة مرير بين الرئاسة والمعارضة التي سيطرت على الكونغرس. وأطلق أنصار جاكسون على أنفسهم "الحزب الديمقراطي"، بينما اتخذ أنصار آدمز الابن عنوان "الحزب الجمهوري الوطني"، ثم تغير ذلك لاحقاً إلى حزب "الويغز". يشار إلى أن مسميات "الجمهوري" حتى ذلك الوقت لا تعني بالضرورة الحزب الجمهوري الراهن، والذي يعود بنسبه السلالي إلى الرئيس أبراهام لنكولن.

شهدت الحياة السياسية الأميركية تحولاً في عهد ديمقراطية جاكسون وخليفته فان بيورين من نمطها الجفرسوني المبكر، أي ديمقراطية الرجال الحكماء المتعلمين والمستنيرين إلى ديمقراطية رجل الشارع العادي كالزراع الصغير والعامل البسيط على نحو مهد للسياسات الشعبوية لاحقاً، كما ظهر أكثر حضور المناطق الغربية الأقل تطوراً على حساب الساحل الشرقي والشمالي الشرقي. واقتضى ذلك توسيع مظلة الديمقراطية السياسية ابتداء من ١٨٢٨ نظراً لإلغاء مطلب الملكية والمطلب الديني كشرطين لحق الانتخاب أو التوظيف. وأصبح ناخبو الرئيس يختارون من قبل الشعب مباشرة وليس بواسطة مجالس الولايات التشريعية، وزادت دساتير الولايات الجديدة عدد المناصب التي تشغل بالانتخاب عوضاً عن التعيين. وأصبحت عملية الترشيح للرئاسة تتم عبر مؤتمرات حزبية عامة، وليست بطريق اللقاءات الضيقة لمجموعة الحزب (Caucus) في الكونغرس. باختصار، أصبح الناس أكثر مشاركة في الحكم، وظهرت الأحزاب السياسية بشكلها الحديث المعروف حالياً، بحيث ينظم الحزب الحملة الانتخابية الرئاسية بين الناس، ويجري حملات لكسب الأصوات لصالح مرشحيه، ويكافأ المخلصون بمناصب حكومية، مما أصبح فيما بعد قاعدة متبعة. لكن هذا جاء على حساب قيمة التعليم والخبرات؛ فوفقاً لديمقراطية جاكسون، أصبح أي شخص عادي ثقة وحسن النية يعتبر مؤهلاً لممارسة السلطة، واستجذبت أفكار من قبيل "تطعيم الحكومة بدم جديد"، وأصبح "تداول" السلطة مقدماً على "استمرار" أو "استقرار" النخب والسياسات، المؤدي إلى تكوين أرسقراطيات عائلية سياسية. كان جاكسون يؤمن بأن الرئيس الذي يعتبر خادماً للأمة ينبغي له استخدام سلطاته بقوة وحزم؛ لذلك فقد تحدى مراراً الكونغرس والمحكمة العليا عندما رأي أنهما لا يعبران عن مصالح الشعب، واستخدم حق "النقض" أكثر من جميع الرؤساء.

كان جاكسن أول من عين وزراء "إداريين" بأسماء غير معروفة، ولا حيثية تشريعية أو سياسية أو طبقية لهم. وكان أول رئيس يعتمد في الحكم على دائرة ضيقة من المستشارين والخبراء الخُص، أطلق عليهم "وزارة المطبخ"، وطرد عدداً من أتباع آدمز، واستبدل بهم رجاله مكافأة لهم على ولائهم وجهودهم. الالفت أن جاكسن لم يقدم أي برنامج معلن، بل رأي أن يحل المشكلات كلما طرأت. وشهد عهد جاكسن انطلاقاً في الغزو والتمدد نحو الغرب، وقد ارتبطت تلك الانطلاقة أيضاً بالديمقراطية الجديدة، باعتبارها فرصة لإفلات الطبقات الدنيا من قيود ورقابة الطبقات المحافظة بالمناطق الشمالية الشرقية، ومجالاً لاستيعاب الفائض البشري، وتحقيقاً لثروات وإمكانات مستجدة، وتطويراً لمشروع الاستيطان والتوسع. ورافق العهد ظهور حركات وأفكار اجتماعية تحررية ذات منابع أوروبية، تهتم بتحسين أحوال الطبقات الدنيا والمرأة والرقيق والمعتوهين، ومكافحة انتشار الكحول. وزادت فرص التعليم والوعي السياسي نتيجة لزيادة رقعة التعليم العام وارتقاء الصحافة، كما ظهرت تنظيمات عمال المصانع بالمناطق الشمالية للدفاع عن مصالحهم.

تمثل هذه المرحلة في التاريخ الأميركي البوتقة التي انصهرت فيها الكثير من التوجهات وولدت فيها أيضاً أفكار هامة أدت أدواراً مقدرة في تشكيل وبلورة وسيرورة الكثير من السلالات السياسية والأيدولوجية في التجربة الأميركية الممتدة.